مقتطفات من كتاب "الأخلاق"

المقدمة: كل ما كان مهمًا بالنسبة لنا

اسمحوا لي ان أحكي لكم قصة؛ ولكن عندما ننتهي، هل سنظل قادرين على حب بعضنا البعض؟

إنها قصة طويلة لأنها تتحدث عن كل ما كان مهمًا بالنسبة لنا: قيمنا، ومبادئنا، ومصادر هويتنا، وأسس مجتمعنا، وعن العمل معًا، والعمل ضد بعضنا البعض، وعن الجانبين المتمثلين في إصدار الأحكام على الآخرين، وإصدارهم الأحكام علينا؛ وأننا لا نستيقظ دائمًا على الجانب الذي نمنا عليه.

ما الذي يمكننا استخدامه كدليل يوجه خطانا؟ كيف نريد أن نعيش؟ كيف يمكننا أن نتعايش؟ كيف فعلنا ذلك من قبل، وكيف سيكون ذلك ممكنًا في المستقبل؟ هذه أسئلة أخلاقية، والقصة التي أريد أن أرويها هي قصة أخلاقية. الأخلاق – تبدو مثل التورّع عن فعل شيء، أو الإكراه عليه، القيود والتضحية؛ التفتيش على الضمائر، الاعتراف وتأنيب الضمير، العفة وتعاليم الكنيسة: كئيبة، خانقة، مثل رفع إصبع الوعظ والإرشاد في وجوه الآخرين.

وهذا الانطباع ليس خطأ؛ وإنما غير مكتمل فقط، ويحتاج إلى استكماله. تتتبع قصتي التحولات الأخلاقية الأساسية للإنسانية، منذ أسلافنا الأوائل، الذين لم يكونوا بشرًا بعد في شرق إفريقيا، إلى أحدث الصراعات حول الهوية وعدم المساواة والقمع والسيادة على تفسير الحاضر، والتي يتم نقلها عبر الإنترنت في عواصم العالم الحديث. إنها تحكي كيف تغير مجتمعنا على مر العصور، وكيف تطورت المؤسسات والتقنيات والمعرفة والاقتصادات الجديدة بالتوازي مع قيمنا وأعرافنا، وكيف أن كل من هذه التغييرات لها أكثر من جانب: لأن من يعيش في جماعة يضع حدودًا بينه وبين الجماعات الأخرى. وأولئك الذين يفهمون القواعد يريدون مراقبتها؛ ومن يمنح الثقة يُصبح مُعتمدًا على من يثق به؛ ومن يحقق الرخاء يخلق عدم المساواة والاستغلال؛ وإذا كنت تريد السلام، عليك أحيانًا القتال.

كل تغيير له جدلية، كل تطور مُرحب به له جانب صعب، مظلم، بارد، وكل تقدم له ثمن. لقد جعلنا تطورنا المبكر متعاونين، ولكن أيضًا عدائيين تجاه كل من لم يكن جزءًا من مجموعتنا - فمن يقول "نحن" سرعان ما يقول "هم"؛ لقد أدى تطور نظام العقوبة إلى تدجيننا، وجعلنا ودودين ومقبولين، ولكنه زودنا أيضًا بغرائز عقابية قوية نراقب بها الامتثال لقواعدنا؛ لقد منحتنا ثقافتنا معارف ومهارات جديدة تعلمناها من الآخرين - وبالتالي جعلتنا نعتمد على هؤلاء الآخرين؛ كما جلب ظهور عدم المساواة والهيمنة ثروة غير مسبوقة ومستويات جديدة من التسلسل الهرمي ومن القمع؛ أطلقت الحداثة العنان للفرد، الذي سيطر على الطبيعة من خلال العلم والتكنولوجيا؛ ومن خلال القيام بذلك، تحررنا من الصورة الوهمية للعالم، الذي أصبحنا فيه الآن بلا مأوى، وخلقنا الظروف الملائمة للاستعمار والعبودية؛ لقد سعى القرن العشرون إلى استخدام المؤسسات العالمية لخلق مجتمع مسالم يتمتع فيه الجميع بمكانة أخلاقية متساوية، ولكنه جلب لنا أيضًا أكثر الجرائم إثارة للدهشة في تاريخ البشرية، ودفعنا إلى حافة الانهيار البيئي؛ لقد حاولنا مؤخرًا التخلص نهائيًا من إرث التعسف والتمييز والعنصرية والتمييز الجنسي وكراهية المثليين والإقصاء؛ إن الأمر يستحق، ولكن سيكون هناك ثمن سيتوجب علينا دفعه مقابل ذلك.

إن أخلاقنا هي عبارة عن طرس: عبارة عن ورق رق مكتوب بشكل متكرر، وغالبًا ما يكون غير مقروء، ويصعب فك شفرته. ولكن ما هي الأخلاق؟ كيف يمكن تعريفها؟ أم الأفضل من ذلك كله: ألا نفعل ذلك على الإطلاق، لأنه "لا يمكن تعريف إلا ما ليس له تاريخ" [i]. لكن أخلاقنا لها تاريخ، وهي معقدة للغاية وغير عملية، مقارنة بالصيغ غير المُجدية التي نفكر فيها ونحن جالسون على كراسينا. حقيقة أنه من

الصعب تعريف الأخلاق لا تعني أنه لا يمكن تحديد ما هي عليه بوضوح. إلا أن ذلك لا يمكن أن يُقال بطريقة مُختصرة.

إن تاريخ الأخلاق ليس تاريخ الفلسفة الأخلاقية. لقد كنا نفكر في قيمنا لفترة طويلة، لكننا لم نبدأ في تدوين أفكارنا إلا مؤخرًا. تلعب شريعة حمورابي والوصايا العشر، والموعظة على الجبل، والضرورة الحتمية عند كانط، وحجاب الجهل عند راولز، دورًا في قصتي، لكنه ثانوي نسبيًا. إنه تاريخ قيمنا، وأعرافنا، ومؤسساتنا، وممارساتنا. أخلاقنا ليست في رؤوسنا، بل في مدننا وسدودنا، في قوانيننا وعاداتنا، في أعيادنا وحروبنا.

القصة التي سأرويها تهدف إلى الإسهام في فهم الحاضر. تتعرض المجتمعات الحديثة حاليًا لضغوط أخلاقية للتوفيق بين إمكانية استمرار وجودها وبين الحقائق الأكثر إزعاجًا المرتبطة بوجودها. فكيف يمكننا رسم خريطة للتحولات التي تشهدها بنيتنا التحتية الأخلاقية، التي نعيشها حاليا، بشكل يسلط الضوء على الصورة بأكملها؟ ومن أين يأتي عدم إمكانية الجمع بين الأقطاب في ظل الاستقطاب الذي نلاحظه حاليًا؟ ما هي العلاقة بين الهوية الثقافية وعدم المساواة الاجتماعية؟ سيتم في النهاية الجمع بين هذه العناصر بطريقة تظهر تشخيصًا معاصرًا للأزمة الأخلاقية في الحاضر. والتشخيص الذي أقترحه ينشأ من قصة أخلاقنا التي أرويها على مدار الكتاب. لفهم الحاضر، يجب على المرء أن يلجأ إلى الماضي.

باختصار، إن تطور أخلاقنا جعلنا قادرين على التعاون، لكنه قصر ميولنا الأخلاقية على أولئك الذين نعتبرهم "مجموعتنا" (الفصل الأول، 5,000,000 سنة). إن الحاجة إلى التعاون التي تزايدت بسبب التغيرات البيئية الخارجية لم يمكن تلبيتها إلا من خلال العيش معًا في مجموعات أكبر من أي وقت مضى. لقد أعطتنا ممارسة العقاب، من ناحية، القدرة على ضبط النفس وتحقيق التعايش الاجتماعي الضروريين لذلك، لكنها من ناحية أخرى، زودتنا بعلم نفس يراقب الالتزام بمعايير مجموعتنا بأقصى يقظة. (الفصل الثاني، 500000 سنة). إن التطور المشترك للجينات والثقافة جعلنا مخلوقات تعتمد على التعلم من الآخرين من أجل استيعاب رأس المال الثقافي المتراكم من المعلومات والمهارات بشكل أفضل. وفي الوقت نفسه، كان على المرء أن يكون قادرًا على تحديد من يريد أن يتعلم منه - أي من يثق به ويصدقه - وقد تم توفير تلك الجُرعة المُقدمة من الثقة من خلال القيم المشتركة (الفصل الثالث، 50000 سنة). لقد تمكن جنسنا البشري، الذي يتكون من كائنات متعاونة وعقابية ومتكيفة، في نهاية المطاف من بناء مجتمعات أكبر من أي وقت مضى، لكنها كانت مهددة بالانهيار تحت وطأة عدد أعضائها. بدأت أشكال التنظيم الهرمية الصارمة تحل محل مبدأ المساواة الأصلي لدينا، مما أدى إلى تقسيم المجتمعات البشرية إلى نُخب اجتماعية واقتصادية وأغلبية من المحرومين سياسيًا وماديًا. لقد تزايد عدم المساواة الاجتماعية، كما زاد أيضًا نفورنا منه (الفصل الرابع، 5000 سنة). لقد كانت مسألة وقت فقط قبل أن ينتج تاريخ الأخلاق تركيبة ثقافية من علاقات التعاون المُستقل بين الأفراد تحل محل القرابة والتسلسل الهرمي، التي كانت بمثابة المبادئ الهيكلية للمجتمع. أطلقت هذه المرحلة الجديدة من التطور الاجتماعي العنان لقوى ضخمة من النمو الاقتصادي، والتقدم العلمي، والتحرر السياسي، مما أدى إلى ظهور المجتمع الحديث الذي ما زلنا نعيش فيه حتى اليوم (الفصل الخامس، 500 عام). وفي الوقت نفسه، تزايدت التوترات بين نفورنا النفسي من التفاوت الاجتماعي والمزايا الاقتصادية التي تتيحها البنية الاجتماعية القائمة على الحريات الفردية. مع زيادة الوفرة المادية، أصبحت المطالبة بتنفيذ وعود المساواة الإنسانية أعلى: أصبح الوضع الاجتماعي والسياسي للأقليات المحرومة أولوية أخلاقية (الفصل السادس، 50 عامًا). إن حقيقة أن هذه المشكلة لا يمكن حلها بالسرعة التي كنا نأملها هي سمة من سمات وضعنا الحالي، حيث تتحد العناصر الرئيسية لتاريخ أخلاقنا لتصنع خليطًا سامًا: علم النفس الجماعي المشحون أخلاقياً يجعلنا عرضة للانقسامات الاجتماعية. إن صعوبات التغلب حتى على آخر أشكال عدم المساواة الاجتماعية تؤدي إلى الشك في كل أولئك الذين لا يقاتلون من أجل نفس القضية بالقوة التي نعتبرها ضرورية. وهذا يعزز انقسام المجتمع إلى "نحن" و"هُم"، مما يزيد من تعرضنا للتضليل، لأننا أصبحنا على نحو متزايد نبني قراراتنا حول من نُصدق على إشارات الانتماء الأخلاقي. لقد بدأ علم النفس العقابي لدينا الآن في التحقق بشكل

أكثر حساسية من العلامات الرمزية للانتماء إلى مجموعتنا، ومعاقبة عدم الامتثال للمعايير المطبقة بشكل مُفرط أكثر فأكثر. صراعات الهوية في الحاضر – اليسار واليمين – هي نتيجة لهذه الديناميكية (الفصل السابع، 5 سنوات). لكن ليس من الضروري أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة، لأن خلافاتنا السياسية عادة ما تكون سطحية للغاية، وتحت ذلك السطح توجد قيم أخلاقية عالمية عميقة يتقاسمها جميع الناس، والتي يمكن أن تكون أساسًا لتفاهم جديد (الخاتمة).

لقد أخبرتكم من قبل: إنها قصة طويلة. بدأت منذ وقت طويل وتنتهي في المستقبل؛ ويزداد إيقاعها حدة وتكثيفًا: من الفصل الأول إلى الفصل الثاني، نَمُر عبر ملايين السنين؛ والثلاثة فصول الأخيرة معًا تمتد لبضع مئات السنين فقط. لا ينبغي أن يؤخذ التقسيم الزمني، الذي اخترته، بشكل حرفي للغاية. العديد من التطورات التي أصفها تتداخل، أو لا يمكن تحديد زمن حدوثها بشكل حاسم. يجب أن تُفهم الأقسام الزمنية التي يتم فيها تنظيم هذا السرد على أنها نطاقات تهدف إلى إثارة محفزات وتقديم نظرة عامة.

كان من الممكن أن تكون هناك تقسيمات أخرى ممكنة ومعقولة. ويمكن أيضًا رواية قصة أخلاقنا باعتبارها قصة المجتمعات البشرية المتنامية. من المجموعات العائلية الصغيرة، التي ربما تضم خمسة أفراد، إلى العشائر والقبائل الأولى التي يبلغ عدد أفرادها 50 أو 500 فرد، والمدن الأولى التي يبلغ عدد سكانها 5000 أو 50000 نسمة، إلى المجتمعات الحديثة الكبيرة، التي تضم 5 مليارات نسمة أو أكثر.

إن تاريخ الأخلاق هو أيضًا تاريخ لأشكال مختلفة من التطور البشري. يبدأ الأمر بآليات التطور البيولوجي، التي ساهمت فيها أخلاقنا في تحديد نوع الحيوان الذي أصبحنا عليه، وما نحن عليه ككائنات طبيعية اليوم؛ إنه يتتبع أشكال التطور الثقافي الذي خلقنا من خلاله عالمنا الخاص؛ وهو يتتبع الصورة الظِلِّية للتطور الاجتماعي والسياسي، الذي يعطي شكلاً للحظة الراهنة في تاريخ البشرية.

إن تاريخ الأخلاق يمكن في نهاية المطاف سرده كقصة للعناصر الأساسية لبنيتنا التحتية الأخلاقية، حيث تجتمع قدرتنا على التعاون، مع ميلنا إلى معاقبة الآخرين، والثقة بهم، والاعتماد عليهم، والمساواة والتسلسل الهرمي، والفردية والاستقلالية، والضعف، والانتماء والهوية لمجتمعاتنا، لتصنع معًا شكل حياتنا الإنسانية. التقسيم المختار هنا هو عبارة عن خارطة، وبالتالي فهو يهدف إلى توفير إمكانية للتوجيه، وليس تصوير الواقع. الخارطة الأكثر دقة ليست دائمًا الأفضل.

يبني كل فصل على الفصول السابقة، ويواصل المنطق الداخلي للسرد. ومع ذلك، فإن جميع الأجزاء مكتوبة بطريقة تجعلها مستقلة بذاتها، بحيث يمكن قراءتها بشكل منفصل عن الأجزاء الأخرى. يمكن لأي شخص مهتم بالتطور البيولوجي البشري، وبالتساؤل حول كيف ساهمت أخلاقنا في تشكيلنا كنوع، أن يركز على الفصول الأولى. وأي شخص يريد أن يتعلم عن التاريخ الثقافي المبكر للبشر، وكيف شكلت البنية التحتية الأخلاقية للحضارات الأولى تلك الثقافة، سوف يستفيد أكثر من الفصول الوسطى. في حين تستهدف الفصول الثلاثة الأخيرة في المقام الأول أولئك الذين يريدون فهم روح أخلاق العصر الحاضر بشكل أفضل. وأي شخص، مثلي، يعتقد أن مثل هذا الفهم للحاضر يأتي بشكل أفضل من فهم الماضي، يجب عليه أن يقرأ الكتاب بالكامل.

إنها قصة متشائمة عن التقدم. إنها متشائمة لأنه يوجد داخل كل جيل الكثير من الشر. وهي قصة تقدم لأنه يبدو أن هناك آليات تعمل بين الأجيال تنطوي على إمكانية التحسن التدريجي في الأخلاق الإنسانية، ولأن هذه الإمكانية يتم استخدامها أحيانًا. إن التقدم الأخلاقي ممكن دائمًا، وفي كثير من الأحيان حقيقي. ولكن لا يمكن اعتبار ذلك أمرًا مفروغًا منه، لأن كل إنجاز يجب الدفاع عنه ضد القوى الرجعية ذات الطبيعة البشرية القاسية، وضد لا عقلانية النفس البشرية، وكذلك ضد طبيعة القَدَر التي لا ترحم.

إن فكرة أننا لن نستطيع فهم أخلاقنا، مع أسرارها وتناقضاتها، إلا إذا فهمنا أصولها، ليست جديدة، حيث جاء ظهورها الفلسفي مؤخرًا مع فريدريش نيتشه، الذي أشار إلى هذا المشروع باسم "علم الأنساب" المبني

على علم الأسلاف. لم يكن أحد يعرف أفضل من نيتشه أن الحجج والحقائق وحدها لا تؤدي إلى تغيير رؤية المعنى. إن قصة ثورة العبيد في الأخلاق، التي نجح فيها من تخلفوا عن الركب وعاشوا حياة سيئة، وهم مستشاطون من سُم المشاعر السيئة تجاه الأقوياء والجميلين والنبلاء، في إعادة تقييم كل القيم، هي أداة بلاغية تُغذي الشكوك حول "تحيزاتنا" الأخلاقية. يستحضر نيتشه نقده الأخلاقي الفعلي عندما يحدد بديله الوضعي: الأخلاق التي تقوم على القيم الدنيوية للكرم والفخر والإبداع المشجع على الحياة.

أوضح نيتشه في كتابه "أصل الأخلاق" الصادر عام 1887، إعادة تفسير قيم "الجيّد" و"السيء" على أنها "شر" و"خير" باعتبارها تطبيقًا خفيًا لـ"أخلاق القطيع"، والتي نجح الضعفاء والمحرومون ذات يوم من خلالها في مهاجمة النبلاء والأقوياء نفسيًا لدرجة أنهم بدأوا يخلطون بين الضلال وما يستحق الحب، وبين المُنهك والقيّم. إنها تحاول إظهار أن ضميرنا الأخلاقي يدين أكثر لاستبطان دوافع القسوة أكثر من الصوت الداخلي الذي يذكرنا بواجباتنا الأخلاقية، ويشكك في أي زهد أخلاقي لإنكار الذات باعتباره أحد أعراض الانحطاط والعداء للحياة.

المشكلة الرئيسية في قصة نيتشه عن أصل الأخلاق: هي أنها غير صحيحة. إن الادعاء بأن الشريعة المسيحية السائدة بما تنطوي عليه من قيم الخشوع والمساواة والتواضع والرحمة نشأت في ذلك الوقت من العجز والكراهية الذاتية لدى الضعفاء، الذين ألهمهم استياءهم واحتقارهم لعظمة الأقوياء لاختراع قيم حياتية مُعادية للحياة، كلها ادعاءات لا تصمد أمام أي اختبار تاريخي.[ii]

ويبقى الكثير في الظلام، كما كان. ومع ذلك، فإننا نعرف الآن جيدًا كيف ينبغي طرح السؤال عن أصل الأخلاق، وكيف يمكن أن تبدو الإجابة على هذا السؤال بشكل تقريبي. للقيام بذلك، يجب علينا أن نعود إلى أبعد بكثير مما اعتقد نيتشه نفسه أنه ضروري، وألا نركز على الانتقال من الأخلاقيات البطولية الأرستقراطية الدنيوية في العصور القديمة إلى أوائل العصور الوسطى المسيحية، والتي بدأت في التأكيد على قيم الرحمة، والتواضع، والخطيئة، والتضحية، والتوجه الأُخروي. بدلاً من ذلك، يتعين علينا أن نواجه المشكلة الأكثر جوهرية والمتمثلة في كيفية ظهور أخلاقنا الإنسانية من الأساس. عندها فقط يمكننا أن نفهم كيف تغيرت قيمنا والهياكل الاجتماعية التي تجسد هذه القيم مع مرور الوقت.

إن تاريخ الأخلاق، الذي أعرضه، ليس تأريخًا بالمعنى التقليدي، حيث تتم الإشارة إلى أحداث وتطورات ملموسة وموثقة جيدًا بشكلٍ أو بآخر، وإنما شكل من أشكال "التاريخ العميق"، الذي لا يتضمن تواريخ وأسماء، بل يخلق سيناريو معقولًا يمكن أن يكون قد حدث على ذلك النحو.

لن يتم فك رموز المسار الدقيق للأحداث بشكل كامل؛ لأن بئر الماضي عميقة (وربما لا يمكن سبر غورها). على المرء الاعتماد على أفضل عملية ممكنة لتثليث التخصصات المختلفة. يقدم كل من علم الوراثة، وعلم الحفريات، وعلم النفس، والعلوم المعرفية، وعلم الرئيسيات، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، ونظرية التطور وجهات نظرها الخاصة، التي تجتمع معًا لتشكل صورة.

فهل تكشف هذه الرواية، كما اعتقد نيتشه، المصدر الحقيقي لقيمنا ـ أصولها المخزية؟ عندما ننتهي، هل سنظل قادرين على حب بعضنا البعض؟ وهل ستؤدي الحقيقة المزعجة، إذا نظرنا إليها في ضوء النهار البارد، إلى تحطيم ثقتنا في قيمنا؟ أم هل سيتضح أن أخلاقنا ستصمد أمام الاختبار؟ أم أن هذا الاحتفال العظيم سينتهي بالخراب والكراهية والعار؟

لا يمكننا أن نعرف ما سيحمله المستقبل، وكيف سنعيش معًا، أو كيف نريد أن نعيش معًا. وليس علينا أن نعرف ذلك أيضًا. قيمنا الأخلاقية تشبه المصابيح الأمامية: لا يمكنك أن ترى بها بعيدًا؛ ولكن إذا اعتمدت عليها يمكنك القيام برحلة طويلة. وهذه هي قصة تلك الرحلة.

وهي تبدأ هكذا:...